رواية الشقيقتين

الاب منري لامنس اليسوعي

(تابع لما قبلُ)

٤

اذا ما اقبل الخريفُ وضرب في الارض أطنابهُ اصاب المرء بقدومهِ تنغُّصاً وراحةً لم يعهد بهما في غير هذا الفصل. ولا شكَّ انَّ في ترطُّب الهواء بعد لَهَب الصيف وفي هبوب النسيم ومنظر الاشجار يعلو اوراقها لون الكمدة والاصفرار متعةً وبهجةً يحدوان به الى التفكُّر والاعتبار وذلك في ساعات المساء اكثر منهُ في غيرها من الاوقات لما يكوِّر اللهُ الليلَ على النهار فيمدُّ على الطبيعة رداء تلوح من خلالهِ كيدةٍ مهيبة جليلة فتتَّسع الآفاق بأعين البشر وترتفع انفسهم الى الاعالي. فلله تلك الساعات اللذيذة يقضيها المرء في الفكر وهذيذ القلب ويتقرَّب الى خالقهِ شاكرًا لهُ على ما اولاهُ من النعم السابغة بيد ان هذه الآونة وشيكة الزوال تمرُّ بسرعة البرق

فلمَّا كان مُنتصف تشرين الثاني في مساء نهارٍ صفيِّ الأديم بهيِّ الانوار عند امتداد الظلام على الارض وطلوع زواهر النجوم في السماء كانت وردة جالسةً بقرب اختها سوسنة في رواق الدار بازاء الجنينة وفيها الازهارُ تعطِّر بعرفها الارجاء والاشجارُ موسوقة باثمارها الشهيَّة لا يُسمع سوى صوت خرير الماء يتحدَّر من فوَّارة على شكل غلالة في حوض من رخام بُني وسط الدار وعن بعد صوت موج البحر المتكسِّر فوق صخور الساحل

فبقيت الاختان هنيهةً تسرِّحان النظر في هذه المناظر وكلتاهما صامتة لا تبديان حراكًا كأنَّ الاجتماع اضحى لهما عبئًا ثقيلًا بعد ان كانتا لا تذوقان بغيره لذَّةً. واذا بمنار رأس بيروت سطع بغتةً فرمى باشعَّتهِ الذهبية على دار الاختين واثار وجهيهما فالتفتت وردة الى شقيقتها فرأت عينيها مغرورقتين بالدموع. فما كان منها الَّا ان صرخت:

ما هذا يا سوسنة ؟ تُرى ماذا اصابكِ ؟ انَّكِ لكاسفة البال يؤلم قلبكِ البابال فما لكِ تخفين عني سبب حزنكِ ؟ أتكدرن سعادتي المأمولة عمَّا لشقائكِ ؟

فأطرقت سوسنة واجمةً ثمَّ القت بنفسها على صدر اختها وهي تبكي ثم قالت:

يا اختاهُ اني سأفتقدكِ عمَّا قليل واذا ما تأمَّلتِ لا يعود حبُّكِ لي كمن ذي قبل وسوف تبرحين الدار وتصيرين الى ما شاء الله . . . أوردةُ شقيقتي لو امكنكِ ان تشعري بما يحسُّهُ قلبي من الألم فانَّهُ حقيقةً يتاظَّى على جمر القتاد ولا ادري اذا لم يتفطَّر بعد فراقكِ

قالت هذا واذرفت الدموع السخينة وعلا صوتُ بكائها بينما كانت تحاول ان تخفي عن اختها ما في قلبها من الغَيرة والحسد

امَّا وردة فما لبثت ان تبيَّنت حقيقةَ الامر فكان لاكتشافهِ في قلبها صدًى مؤلمًا رنَّق عيشها وذهب ببهجتهِ فلم يعد يمكنها ان توجِّه نظرها الى اختها دون ان تلوم ذاتها على سعادتها

فمرَّ على ذلك بضعة ايَّام وكان كلَّما قرب النهار المعيَّن لحفلة العرس تزيد في قلب سوسنة مضض الاوجاع لم تجد لسترها عن العيون طريقةً فتارةً تُظهر ما اكتنَّهُ الفؤاد مجدَّة طبعها وتارةً باختلائها عن اهلها وحينًا بتغلُّب السَّوداء على خُلقها وخَلقها حتَّى شحب لونها وخاف ابواها ان تضنَى منها القوى وينالها داء عياء

لكنَّ الفتاة أحسَّت بعد حين انَّ العيون شاخصة اليها تستكشفُ ما في جنانها فتجلَّدت وتجمَّلت حتَّى حجبت عن الكل مكنونات ضميرها فعاد التبسُّم الى وجهها وأبدت لمن قاربها انسًا واطفًا كما اعتادت الامرَ في السابق . ثمَّ اخذت تجدُّ وتسعى بنشاط جديد لتهيئة لوازم العيد القريب مع ما ترى في قدومهِ من زوال سعادتها . وبجمل القول انَّهُ لم يعد احدٌ في البيت يقف على ما يتنازع قلبها من الخواطر والهواجس . بيد انَّ وردة لم تكُ تنخدع بهذه الظواهر فلبثت مرتابةً في امر اختها

ولمَّا حان اليوم المعهود واوقع كلا الخطيبين على الشروط المألوفة في مثل هذه الظروف احتفل المسيو ب . بعقد الخطبة بما امكنهُ من الأبَّهة والاحتفال . فنجز الامر اذًا وقرَّ لوردة ان تُكنَّى باسم بارونة دي لَيْنس باقترانها مع خطيبها الشريف

٥

فبانت الاختان في هذا العيد مرتبطتين بروابط المودَّة والولاء ما أمكنهما . فقضتا مع آل البيت قسمًا كبيرًا من النهار لاستقبال جماهير الحاضرين لتأدية فروض التهاني الى العائلة . وكانت بطاقات الزيارة والمكاتيب والتلغرافات ترد من كلِّ الانحاء داعية للقرينين

باليمن والرفاه. ولمّا كان البارون من ارباب السياسة توارد عليه هذه الأنباء من كلّ عواصم اوربّة كعثمنّة وأثينة وغيرها تتمنّى له الخير والسعادة. وكان الجميع يتبنّون لهذا القران حُسن العقبى لما يروهُ في العرسين من الخواصّ والسجايا التي لم تكد تجتمع في غيرهما كالغنى والجمال والآداب والدين. وكان الزوّار يُطنبون في محاسن وردة لا يرون بينها وبين الورد خلافًا سوى انّها لا شوك فيها

امّا سوسنة فكان ياوح على محيّاها بشجّة شديدةٌ حتّى لم يشكّ احدٌ عن صفاء قلبها واخلاص ودادها الّا انّ اختها لحت في بشاشة وجهها تصنّعًا وتجمّلًا مع امتقاع في لونها واصفرار في وجنتيها

فلمّا كان الماء نحو الساعة التاسعة دخل لفيف الاهل والاقارب الى الديوان الكبير يتقدمهم الخطيبان الجديدان وكانت سوسنة رافلةً في ابهى ملابسها تزينها الحلي والمصوغات وهي ممتطقة بنطاق ازرق ناصع اللون مرصّع بالحجارة الكريمة يبدو حسنهُ فوق ثيابها البيضاء كالثلج

امّا وردة فكانت بخلاف الامر لابسةً لبسًا بسيطًا حتّى لو رآها غريب لظنّ انّ اختها صاحبة العيد ليست هي. اما الحليّ فلم ترضَ منها سوى بحليب صغير من الذهب كان ياوح على صدرها وسوارَين من الفضّة في زنديها وكان شعرها الاشقر مجموعًا فوق رأسها تضمّهُ عصابة سوداء ذات عقدة واسعة. ولمّا اشارت اليها امّها ان تستبدل هذه العصابة بغيرها من اللّون الارجوانيّ اجابتها ابنتها بلطف:

اني أوثر الأسود. واختلاف الالوان في اللبس اجود. هذا وان احببتِ يا امّاه ان اغيّر هذه العصابة لفعلتُ وفقًا لرضاكِ

فاجابتها امّها: إبقي كما شئتِ يا مهجة الفؤاد. فدونكِ هذه الوردة شكيها في نطاقكِ وكفى بذلك لهذا الماء لانّ الوقت قد حان وجماعة المدعوّين في انتظاركِ

فلمّا دخل الجمهور الى القاعة كانت نوافذها مفتوحة يزفّ اليها هواء الليل روائح الزهور العطرة الفائحة في حديقة الدار. وكانت انواع الثريّات تنعكس في مرايا الجدران والخشب المصقول فتجعل الديوان كانّهُ شعلة نار هذا مع ما في القاعة من النقوش والصور الحسنة الهيئة

فانتظم القدم كلٌّ بمكانهِ والمدعوّون في ثيابهم العيديّة وارباب الامر منهم في

ملابسهم الرسمية . امَّا السيدات فلم يدعنَ في ذلك اليوم شيئاً من الازياء المستجدَّة ليتخطرْنَ في حللهنَّ ويتبارينَ حسناً وجمالاً

فابتدأ العيد بفرح وزيد مسرَّة . ولكن لما اراد الخطيبان ان يفتتحا السهرة بالرَّقص المعهود اذا بسوسنة امتقع لونها فوقعت مغشيًّا عليها في وسط الديوان . فاسرع الناس حولها ونضحوا الماء على وجهها . فأفاقت بعد برهة

فما شعرت بما جرى لها حتَّى علا وجهَها الاحمرار خجلاً فانتصبت مستيحة العذر لكثرة ما أصابها من التعب ذلك النهار ثم جاست مكانها وأبت ان تركن الى الراحة في غرفتها بل احيت ليلها رقصاً مع الراقصين

فلمَّا قرب منتصف الليل والقوم في جلبة وبسط وجَّهت سوسنة النظر الى اختها كأنَّها تريد ان تبيِّن لها انَّها تقاسمها فرحًا وتشاطرها سرورًا الَّا انَّها لم تبصر بوردة فجعلت تسرِّح الطرف في المجلس قلقةً فلم ترَ لها اثرًا . ثم قامت وسألت والديها ثم البارون دي لينس وبقيَّة المدعوِّين اين اختها فلم يُجِر احدٌ جوابًا

فهتفت سوسنة بصوت الكآبة واليأس : شقيقتي وردة شقيقتي تُرى اين ذهبت شقيقتي ؟

قالت هذا وجعلت تسرع في الديوان ذهابًا وايابًا كأنَّها فقدت رشدها . ثمَّ خرجت من القاعة والاهل في اثرها

فاخذ الجميع في البحث والتفتيش في كلِّ حجرةٍ وتفقَّدوا كلَّ زاوية من زوايا الدار حتَّى التمسوا من الجيرة عن الخطيبة خبرًا الَّا ان طلبهم لها ذهب ادراج الرياح وأنكر الجميع انهم رأوها . فارتاع المدعوون لهذا الامر واستولى الرُّعب على القلوب . امَّا السيِّدة ب . فاستُطير لُبُّها روعًا وغُشي عليها واذا بصوتٍ امرّ من وقع الحسام سُمع من جهة الغرفة التي كانت تسكنها وردة

فاسرع الجميع الى تلك الناحية يتزاكضون وهم في حيرة من امرهم واذا بسوسنة لا تعي كدرًا ولوعةً وفي يدها بطاقة كُتبت فيها الأسطر الآتية على عجلة :

الوداعَ يا ابتِ الوداعَ يا امَّاهُ وايَّاكِ ايضًا اقريتُ الوداعَ يا شقيقتي . لا يطلبنَّني احدٌ منكم فانكم لا تجدونني . وانت ايُّها البارون دي لينس قد حُلْت وثاقك فانت حرٌّ اطلب سواي وعشْ لسعادة غيري . ودمتم

وردة ب .

والحقُّ يقال انَّهُ لو كانت الصاعقة وقعت في وسط الدار بين ظهراني القوم لمَّا أثرت في القلوب تأثيرًا اعظم ولا اصابتهـا بحيرة اشدّ. فللحال صمتت الالسن وتبدَّدت اجواق الراقصين وهدأت رنَّات المزاهر والملاهي وطُفِئَت المشاعل والثريَّات وهمَّ المدعوون في الخروج واحدًا بعد آخر. امَّا السيّدات والصبايا اللواتي لم يأتينَ الى هذه الدعوة سوى لترويح الخواطر وطلبًا للملذّات والرقص فتبلبلت افكارهنَّ وتولَّى عليهنَّ الدهش واسرعن الى الباب ليركبن العربات ويَعُدْنَ الى بيوتهنَّ لأنَّهُ مذ حلَّ الدهر بكلكاتهِ في هذه الدار لم يُطقنَ بها السكنى. والعالم كما لا يخفى لا يحبّ بيوت المناحة ومعاهد الحزن. فتبًّا للدنيا من صديقة مُماذِقة لا خير فيها

هذا وانَّ بعض الاصدقاء الخاصين تخلَّفوا بعد خروج الجمهور ليخفّفوا بحضورهم ألم المصابين ولكنهم لم يلبثوا بعد قليل استأذنوا بالانصراف واستودعوا البارون والقنصل آسفين صامتين. فتلك غاية ما يصنع البشر في مثل هذه البلايا العظيمة وتضميد مثل هذه الجراح البليغة

فلمَّا صار منتصف الليل لم يبقَ في بيت القنصل سوى البارون واهل العائلة. فكنت ترى الديوان الكبير في حالةٍ يُرثى لها واثاث الدار مبعثرًا مقلوبًا وآثار الفرح والبسط ملقاةً لا يُعبأ بها

وكان البارون جالسًا في زاوية مطرقًا الى الارض واجمًا و بقربهِ المسيو ب. يسعى بان ينهض عزيمتهُ ويقوّي همَّتهُ بينما كان يخفي في قلبهِ ما كان هو عليهِ من الكآبة. وفي قرنة اخرى من الدار كانت السيّدة ب. وابنتها سوسنة تذرفان الدموع مدرارةً. فسُمعت وقتئذٍ طرقاتُ الساعة الاثنتا عشر فكان لها دويٌّ موجع في قلوب اهل الدار. امَّا البارون دي لينس فكان يُعدُّها كدقّات جرس الحزن في يوم وفاة بعض الاحباب كأنَّها تُنذر بخيبة آمالهِ ونهاية ما تخيَّلهُ لحياتهِ من العزّ والسعادة (ستأتي البقية)